إعجاز

أَفَرَءَيْتُمُ النار التي تُورُون

تأليف

الدكتور / أحمد عروة (يرحمه الله)

أستاذ بمعهد العلوم الطبية

رئيس قسم صحة البيئة (سابقاً)

المعهد الوطني للصحة العمومية - الجزائر

إشراف

الدكتور / عبدالله بن عبدالعزيز المصلح

الأمين العام للهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنّة

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

تقديم

فضيلة الدكتور/ عبدالله بن عبدالعزيز المصلح
الأمين العام للهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنّة

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله؛ كرّم الانسان بالعقل والمعرفة؛ ليخرج من أوهام الجهل إلى أنوار العلم؛ ومَنَّ عليه بعد نعمة الخلق والإيجاد من عدم؛ بنعمة الإسلام دين العلم؛ فأمره بقوله :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (العلق : ١-٥)

وصلاة وسلاماً على عبدالله ورسوله سيدنا محمد رسول العلم؛ المنزل عليه :

﴿ الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ (الرحمن : ١-٤)

وبعد، فإن هذا الكتاب الذي نقدمه بين يدي قارئنا الكريم يمثل وقفه تدبر وتفكر – من كاتبه – أمام موضوع واحد من إشارات القرآن الحكيم والتي لا تحصى كثرة، عاش فيه من خلال بضع آيات، تستوقفنا وتلفت انتباهنا، إلى حقيقة واحدة، من حقائق الحياة التي نعيشها ونحياها جميعاً، من رجال ونساء وكبار وصغار في الحواضر والأسفار، ألا وهي (**حقيقة النار**)، حيث يمر عليها الجميع مرور العابر في غفلة من تأمل حقيقتها ..

وإذ بالآيات القرآنية الكريمة تنادينا :

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * أَأَنْتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ * نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾

(الواقعة : ٧١-٧٤)

ويعبر كاتبنا وباحثنا في كتابه هذا عن استجابته لهذه اللفتة القرآنية بقوله : " لقد آنسنا في آيات النار نوراً فالتمسناه، وإذا به يشع بالحق الساطع، والإعجاز القاهر، مما تعجز عن إدراكه العقول " .

ولنترك الفرصة للقارئ الكريم مع الكتاب ليتفهم من خلاله وعلى ضوء أبحاثه حقيقة من حقائق هذا الكون الذي استخلفه الله تعالى فيه . وعلى هدي من كتاب ربه وسنّة نبيه صلى الله عليه وسلم، وحتى يزداد إيمانه إيماناً . ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير .

تمهيد

إن القرآن الكريم هو الكتاب المنزل الوحيد الذي يتخطى طريق الإعجاز بالمعجزات[1] ليسلك طريق الإعجاز بالمعقولات .

وهكذا كل ما جاء في القرآن الكريم من آيات تستشهد بظاهرات الكون والطبيعة لإثبات ربوبية الله ووحدانيته وصدق كلامه وحقيقة اليوم الآخر تحمل ذلك الطابع الإعجازي الذي يتحدى العقول بمعطيات العلم ومقاييس العقل .

يتميز الإعجاز العلمي في القرآن بخصائص نلخصها فيما يلي، وسنرجع إليها لنشرحها من خلال التأملات التي نوردها حول الآيات التي تشير إلى ظاهرة النار خاصة :

١- إن القرآن الكريم يدعو العقل الإنساني إلى سلوك مناهج الاستكشاف العلمي والاستدلال العقلي لمعرفة الحقائق التي جاء بها تبليغاً وترشيداً .

(١) المقصود بالمعجزات الخوارق التي كانت تظهر على يد المرسلين عليهم السلام كعصا موسى وناقة صالح .

٢ - إنّ إعجاز الآية القرآنية مرتبط بثبوت الحقيقة الكونية التي يستشهد بها لإيضاح تلك الحقيقة .

٣- إن الاكتشافات العلمية للظاهرات الكونية من شأنها أن تجلي الحقائق الغيبية التي تصرح بها الآيات القرآنية .

٤- إن الاكتشافات العلمية ما دامت قد ارتقت إلى مستوى الحقيقة فإنها تعطي للآيات القرآنية التي تتعرض لها أبعاداً لاتزال تتعمق وتتسع على مدى تلك الاكتشافات حتى تصل بالعقل إلى درجة اليقين .

وذلك ما تعبر عنه الآية :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾

(فصلت : ٥٣)

٥- إن الآيات القرآنية في تفاصيلها وتكاملها تعبر عن وحدة

الكتاب، كما أن الآيات الكونية في جزئياتها وتناسقها تعبر عن وحدانية الخالق .

٦- إن الإعجاز العلمي في القرآن الكريم يأخذ تارة طابع الاستدلال العقلاني الذي يدحض جدلية الملحدين، ويأخذ تارة أخرى طابع التحدي بما أنه يطالب الإنسان بإقامة البرهان العلمي على استصغاره وإنكاره للقدرة الإلهية الخلاقة .

تلك بعض الخصائص التي يتميز بها الإعجاز القرآني سنتعرض لها مفصلة في المثال الذي التقطناه من بين الظواهر التي يستشهد بها القرآن الكريم .

ذلك المثال هو ظاهرة (النار) وقد اخترناها لأن الله سخرها للإنسان خاصة، وجعل منها حياته ومعاشه وكل مظاهر حضارته، ومازالت تستقطب اهتماماته منذ العصور الأولى، وأخذت في الحياة المعاصرة مكانة تكاد تستحوذ على كل المرافق الاقتصادية والحضارية .

فمن الآيات التي تشير إلى ظاهرة النار قوله تعالى :

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنْ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ (يس : ٨٠)

وقوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * أَأَنْتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ * نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ (الواقعة : ٧١-٧٤)

يتبين الإعجاز العلمي في هذه الآيات من عدة أوجه نعرضها فيما يلي :

الإعجاز الجدلي

وهو أن تلك الآيات ترتكز على برهان المشاهدة الموضوعية للظاهرات الطبيعية لتدحض بها جدلية المكذبين، وهم يعتمدون على نفس المشاهدة لإنكار البعث كما جاء في الآيات :

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ (يس : ٧٨)

﴿ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَءابَآؤُنَا الأَوَّلُونَ ﴾ (الواقعة : ٤٧ ، ٤٨) ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ﴾ (الجاثية : ٢٤)

نفس الاستدلال السلبي نجده عند كل الماديين القدامى منهم، والحديثين من الفلاسفة اليونانيين مثل إبيقور (Epicure) إلى الماديين الماركسيين ومن اقتدى بهم إلى يومنا هذا .

يرد عليهم القرآن الكريم بفضح الخلل الذي يعتري منهجهم الاستدلالي، وذلك الخلل هو أنهم نسوا أو تناسوا حلقة أساسية في بنيتهم الجدلية، وهي معجزة ظهور الحياة الخارقة لقوانين المادة، وما يتسلسل عنها من معجزات خَلقية وحياتية لا تحصى .

تلك الحلقة المفقودة هي التي يعبر عنها القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ وَنَسِيَ خَلْقَهُ ﴾

ثم بعد التصحيح لمعطيات الاستدلال يصل إلى عكس ماتوصل إليه الملحدون :

﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ ﴾

(يس : ٧٩-٨١)

هذا رد القرآن الكريم على الماديين المكذبين السابقين واللاحقين، يقلب عليهم جدليتهم فيدمغها في جحرها مستدلاً بظاهرة الحياة نفسها .

لم يكن القرآن ليكذب الحقائق العلمية الثابتة التي تمثل سنّة الله في مخلوقاته، وإنما ليضعها في حدودها الوضعية وغاياتها الوجودية، بينما يعتمد الماديون في إنكارهم لوجود الله وحقيقة البعث على ظاهرة القوانين الطبيعية .

من بين القوانين الطبيعية – التي وضعت في العصر الحديث والتي كثيراً ما يعتمد عليها الجدليون الماديون – قوانين الديناميكية الحرارية (Thermodynamic) ، وهي تخص التحولات التي تطرأ على الطاقة الحرارية في الكون .

ومفاد تلك القوانين :

أن الطاقات الحرارية المتفاعلة في الكون ستنتهي حتماً إلى التعادل والسكون، ويعني ذلك انتهاء كل حركات الكون وظواهر الحياة، ولكن هذا القانون لايصدق إلا في حدود نظام مغلق يفترض أن الطاقات الموجودة والمتفاعلة فيه متروكة لديناميكيتها الذاتية دون تدخل أي قوة أو إرادة خارجة عنها، كيف يطبق هذا القانون على نظام الكون ؟

هناك حالتان : إما أن نفترض أن الكون حادث في الزمان، وفي هذه الحالة يجب وجود الخالق المبدع وتبطل حجة الماديين، وإما أن نفترض أن الكون أزلي الوجود ولو كان الأمر كذلك لسكنت الطاقة الحرارية فيه منذ الأزل، وفي هذه الحالة أيضاً لا يمكن بقاء الحركات والطاقات الحية فيه إلا بوجود الخالق المدبر .

ومن المناسبات الإعجازية أن القرآن الكريم يستدل بتلك الطاقة الحرارية نفسها، كما نجدها في ظاهرة النار المختزنة في الأوراق الخضراء من النبات .

نعم ظاهرة النار المسخرة للحياة، ذلك ماتبينه المشاهدة البسيطة، وذلك مايثبته البحث العلمي في النبات الأخضر الناشئ الذي يحمل في خلاياه الدقيقة أجهزة عضوية عجيبة تستجلب الطاقة الحرارية من أشعة الشمس الضوئية وتمسك منها بالمقدار الموزون لتحولها وتخزنها في الأوراق والفروع والفواكه لتصنع بها من عناصر الأرض الترابية والهوائية والمائية سكراً ودهناً ووقوداً .

وهكذا يتبين في هذه الظاهرة التي تُعجِز العقل فيما تبديه من نظام خَلقي وتركيبي، ومن تحكم في الطاقات الكونية ومن حكمة في الغاية الحياتية أن جدلية الطبيعة الحية لاتستغني عن الخالق المدبر الحكيم، بل تدل على وجوده ووحدانيته وعلمه وحكمته .

الإعجاز العلمي في التكامل الاستدلالي

يتجلى هذا النوع في التكامل الاستدلالي بين الآيات القرآنية التي تستشهد بظاهرة النار لإثبات حقيقة البعث.

تلك الآيات هي :

قوله تعالى : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ (يس : ٨٠)

وقوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ۞ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴾ (الواقعة : ٧١ ، ٧٢)

ويظهر ذلك التكامل في ثلاثة أوجه :

الوجه الأول : إن تلك الآيات ترد على نفس الإشكالية الجدلية التي طرحها المادّيون المنكرون للبعث وهي :

في الحالة الأولى قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ (يس : ٧٨)

وفي الحالة الثانية قوله تعالى : ﴿ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۞ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴾ (الواقعة : ٤٧ ، ٤٨)

الوجه الثاني : إن الاستدلال ينطلق :

في الحالة الأولى من معجزة النشوء في قوله تعالى :

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾

(يس : ٨٠)

وفي الحالة الثانية من معجزات التسخير في قوله تعالى :

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * أَأَنْتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴾ (الواقعة : ٧١ ، ٧٢)

الوجه الثالث : الاستدلال يهدف إلى إثبات نفس الحقيقة وهي البعث :

في الحالة الأولى بقوله تعالى :

﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ (يس : ٧٩)

وفي الحالة الثانية بقوله تعالى :

﴿ قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴾

(الواقعة : ٤٩ ، ٥٠)

أنه في كلتا الحالتين يأتي الجواب على السؤال قبل إثباته بالاستدلال، ويركز ذلك الاستدلال على المشاهدة الموضعية للقدرة الخلاقة التي تتجلى واضحة في نشأة الإنسان

نفسه، ثم في تسخير طاقات الكون المادية والحية لمعاشه وتطلعاته الحياتية والحضارية .

بعد ذلك كيف يتشكك السائل في قدرة الله على بعثه من جديد كما خلقه أول مرة

﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ (القيامة : ٤٠)

الإعجاز العلمي في الظاهرة الخَلقية

تتمثل الظاهرة الخلقية في تخزين الطاقة النارية التي تكمن في الأشعة الشمسية، وذلك مايظهر في عملية التمثيل الضوئي (Photosynthesis) التي تنطق عليها الآية الكريمة ..

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً ﴾ (يس : ٨٠)

قبل أن نشرع في شرح تلك الظاهرة نشير إلى أن كلمة الشجر لا تقتصر على ذات الساق الصلب، وإنما تشمل كل أنواع النبات، كما جاء ذلك في التفاسير والمعاجم الأصلية (المعجم الوسيط ج ١ ، ص ٤٧٣ ، مقياس اللغة ج ٣ ، ص ٢٤٦) .

التمثيل الضوئي

من طبيعة الكائنات النباتية سواء كانت صغيرة (ذات الخلية الواحدة) أو كبيرة أنها تقتبس من الأشعة الشمسية لتمسك بها عناصر الأرض الترابية والمائية والهوائية، وتؤلف بينها، وتصنع منها المركبات العضوية، ومنها السكريات (هيدرات الكربون) والدهنيات (الزيوت النباتية) والبروتينات .

تمر عملية التمثيل الضوئي على مراحل تكوينية عديدة ومعقدة لا تهمنا تفاصيلها تتلخص في عمليتين أساسيتين :

١-تحليل جزيء الماء H_2O بفصل الهيدروجين عن الأكسجين، وبذلك تتحرر الطاقة الحرارية التي تحملها ذرة الهيدروجين :

$$H_2O \longrightarrow 2H + O$$

٢ ـ تركيب الجزيئات العضوية :

$$CO_2 + 2H + \text{طاقة} \longrightarrow CH_2O$$

وحصيلة العملية هي أن المادة العضوية المركبة قد تختلف حسب نسبة ونوعية المكونات الأساسية والإضافية، وأن تلك المركبات قابلة بدورها للتحليل المتدرِّج والاحتراق .

وذلك يرجع بالمكونات إلى أصلها حسب المفاعلة :

$$CH_2O \longrightarrow CO_2 + H_2O + \text{طاقة}$$

عملية التمثيل الضوئي تقع داخل جهاز خاص في الخلايا النباتية يشتمل على حجيرات Chloroplast تتكون فيها مادة اليخضور Chlorophyll

وهي مادة تعطي للنبات لونه الأخضر، وتقوم بعملية التقاط الأشعة الضوئية وتحويلها وتخزينها وتصديرها لكي تستخدم في صنع المركبات العضوية المختلفة كالسكريات والنشا السيلولوز Cellulose والحطب . (أنظر شكل رقم ١)

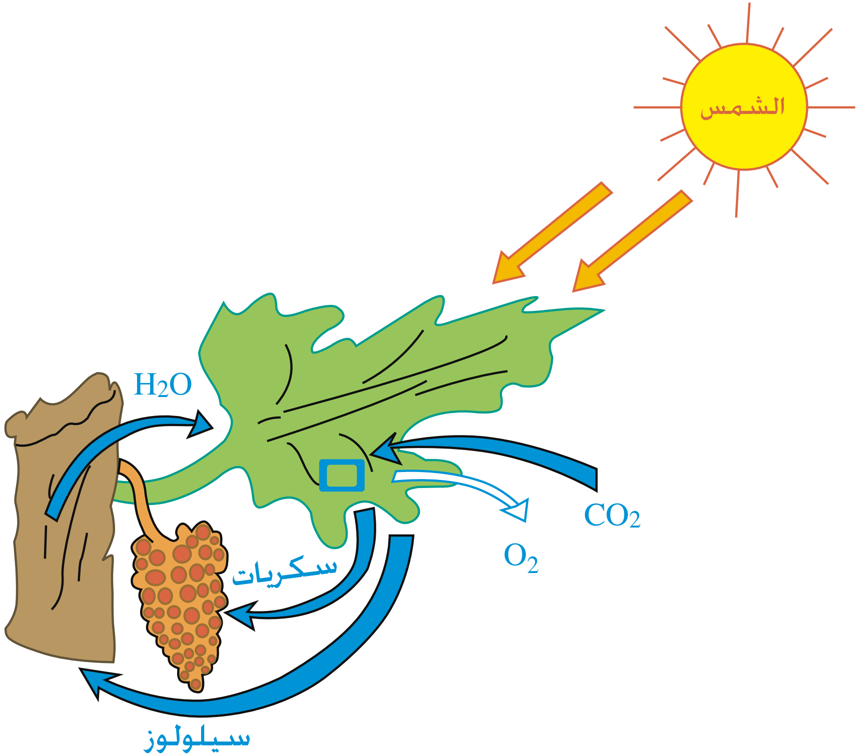

(شكل ١) التمثيل الضوئي Photosynthesis

تصنع تلك المادة العضوية النباتية من الماء H_2O والهواء CO_2 والمعادن الأرضية والطاقة الحرارية المنبعثة من الشمس وأهم الأشياء التي تحتوي على تلك المادة هي :

- العشب : وأغلبه متكون من السيلولوز، وحينما يأكله الحيوان يتحول في عمليات الهضم إلى سكريات يحرقها الجسم، ويستخرج منها الطاقة الحرارية .

- الفواكه والحبوب : تحتوي في أغلبها على سكريات ودهنيات وبروتينات تهضم مباشرة، وتحول كيماوياً إلى جلوكوز GLUCOSE وهو الوقود الحيوي الذي تستخرج منه الطاقة الحرارية داخل الجسم .

- الحطب : وهو مادة عضوية فقدت رطوبتها وبقيت مشحونة بالطاقة النارية يستخرج منها الوقود إما مباشرة في الاحتراق وإما بصفة تدريجية كما يحدث في عملية التخمير التي تحول النبات إلى فحم وبترول وغاز .

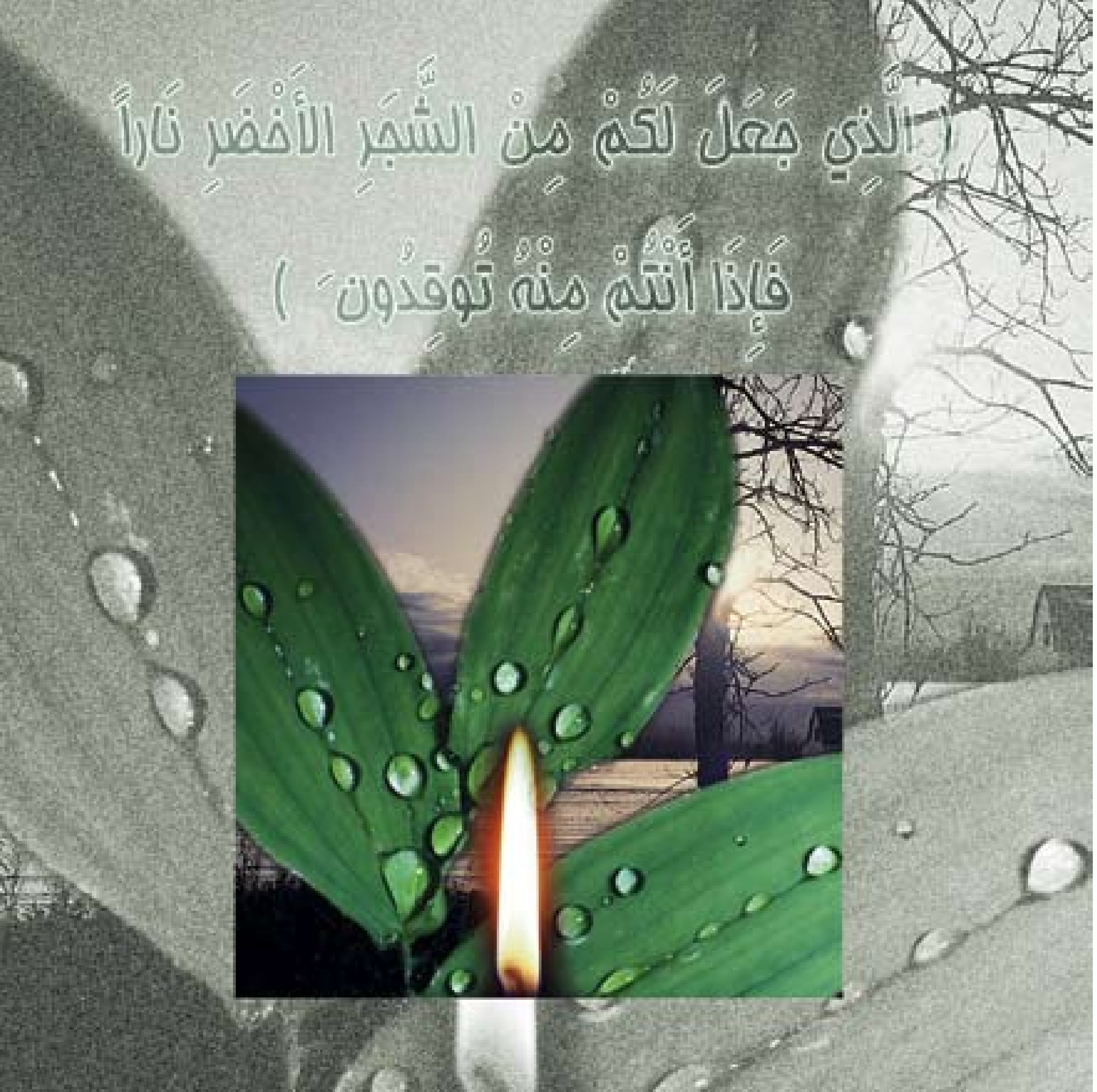

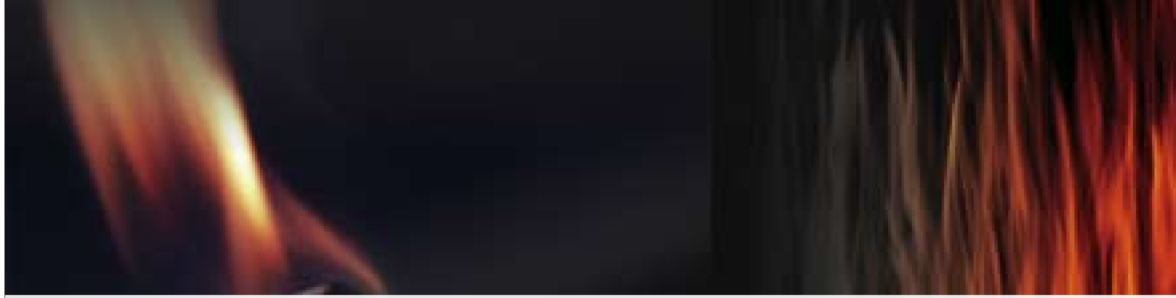

الإعجاز العلمي في شمولية المعنى

ويتمثل في شمولية المحتوى لمعنى الآية، وذلك أن الطاقة النارية التي تشير إليها الآية :

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴾ (الواقعة : ٧١)

لا تقتصر على النار الموقدة من الحطب، وإنما تمتد إلى جميع أنواع المحروقات التي يرجع منشؤها إلى النبات وهو الشجر الذي تعنيه الآية الكريمة ومن بينها : الحطب الجاف - الزيت النباتي والحيواني - الفحم الحطبي والفحم الحجري - البترول ومشتقاته - الغاز الطبيعي .

كل هذه الأنواع من المحروقات يرجع أصلها إلى المادة العضوية النباتيه، وتختلف حسب الكيفيات والظروف التي وقعت فيها تحولاتها التركيبية والانحلالية .

تتكون تلك المحروقات عادة بعملية تخميرية جزئية تحدثها البكتريا الأرضية في ظروف تحميها

من تأثير الهواء والأكسجين، فتفقد بعض الغازات وبعض الماء فتتكثف المادة الكربونية .

الصورة التالية تشكل أنواع الوقود الطبيعية المستخرجة من النبات (شكل رقم ٢)

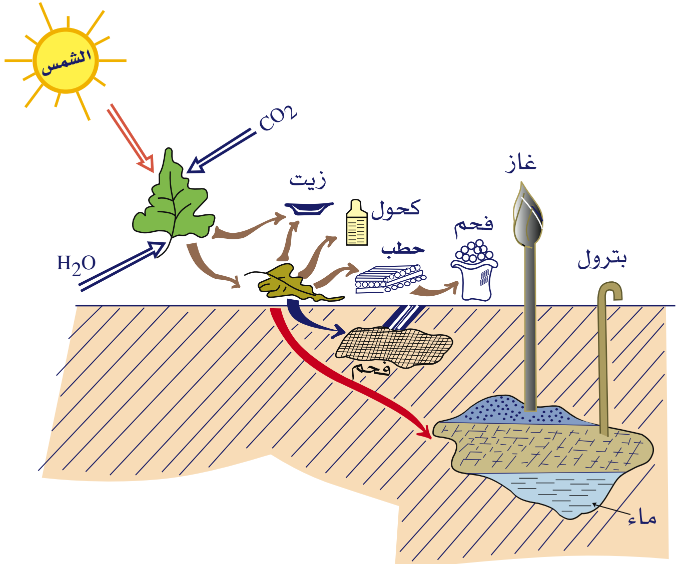

(شكل٢) أنواع المحروقات التي يرجع أصلها إلى الشجر الأخضر .

وتمتد تلك الشمولية إلى كل أنواع الطاقات الضوئية والكهربائية والكيميائية والحرارية والآلية التي يرجع أصلها إلى تخزين الطاقة الشمسية في الشجر الأخضر .

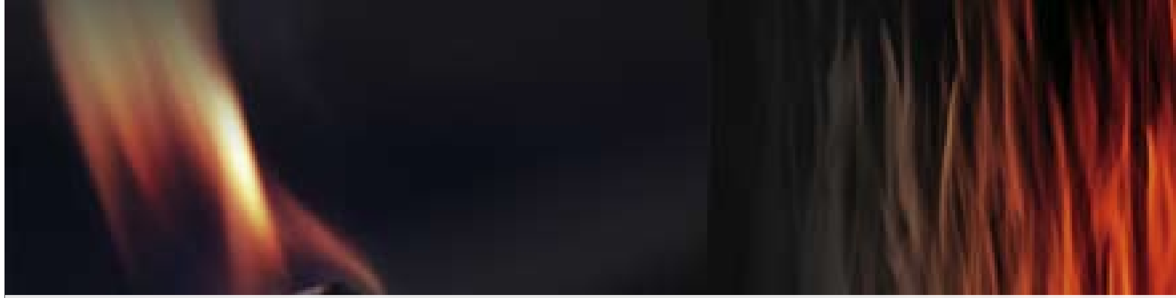

الإعجاز التبليغي

يظهر في تكيف الآية القرآنية مع هدفها التبليغي والاستدلالي حسب التفاوت البشري في إدراك الحقيقة العلمية التي تدعو إليها بحيث إنها تقنع الساذج الأمي، كما تقنع الباحث الطبيعي المتعمق في الاختصاصات البيولوجية . كيف كان وقع الآية في ذهن البدوي الذي يسمع الآية القرآنية تُتْلى عليه لأول مرة :

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴾ (الواقعة : ٧١)

تأتي الآية لتخرجه من بداهة الرؤية وتلقائية الاستعمال إلى مرحلة التدبر في الظاهرة نفسها وأسرار نشوئها وحكمة تسخيرها، وما تتضمنه من قدرة خالقة ومدبرة . لقد كان ينظر إلى الأشياء التي تحيط به باعتبار علاقته معها والحاجة إليها في طلبه للمعاش

والراحة والأمن، وذلك شأنه في الماء الذي يشرب ويسقي به مراعيه ودوابه، والطعام الذي يستحضره من العشب والحب والفواكه والأنعام، والنار التي يوقدها للاستضاءة والطبخ والتدفئة والحدادة .

ولربما كانت النار من بين تلك الظواهر الطبيعية أشد وقعاً وتخيلاً لما تحمله من طاقة مدمرة مهلكة، ولعل هذا وراء تقديسها من قبل بعض الوثنيين .

ويأتي القرآن الكريم بذكر الظاهرة ليتدبر المرء في خصائصها الطبيعية، وفي أنها تخضع لسنة خالقها في نشوئها وتسخيرها حتى يصل به العقل إلى الإيمان بالله

﴿ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ ﴾ (الواقعة : ٧٣) .

ثم يتطور العقل البشري وتتسع مجالاته العرفانية، وتتراكم تجاربه، وتنضبط مناهجه الاستنباطية والاستدلالية، وهكذا يكتشف أن النار عنصر طبيعي من بين العناصر الأساسية التي تتكون منها الكائنات الجامدة والحية، ويتقدم العلم ليعطي الإعجاز القرآني أبعاداً جديدة تتناسب مع مستحدثات العلم وتطور المفاهيم، ذلك ما نجده عند المفكرين والمفسرين الأفاضل الذين زخرت بهم الحضارة الإسلامية في

عهودها الزاهرة من أمثال الفخر الرازي وأبي حامد الغزالي وابن سينا كما يتبين ذلك من خلال شروحهم وتفاسيرهم .

يقول الفخر الرازي في تفسير الآية الكريمة :

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنْ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ (يس : ٨٠)

ووجهه هو أن الإنسان مشتمل على جسم يحس به، وحياة سارية فيه، وهي كحرارة جارية فيه، فإن استبعدتم وجود حرارة وحياة فيه فلا تستبعدوه فإن النار في الشجر الأخضر الذي يقطر منه الماء أعجب وأغرب وأنتم تحضرون[١] حيث منه توقدون[٢] ويقول ابن سينا عن دور الطاقة الشمسية في إنضاج الفواكه قبل اكتشاف التمثيل الضوئي بتسعة قرون : (تكون الفواكه التي تحلو تكون أولاً فيها عفوصة شديدة التبريد فإذا جرت فيها هوائية ومائية حتى تعتدل قليلاً بالهوائية وبإسخان الشمس المنضج مالت إلى

(١) بمعنى تشهدون والله أعلم .

(٢) التفسير الكبير جـ ٢٦ ص ١١٠.

الحموضة مثل الحصرم، وفيما بين ذلك تكون إلى قبض يسير ليس بعفوصة ثم تنتقل إلى الحلاوة إذ عملت فيها الحرارة المنضجة)[١]

ثم يأتي عصر الاكتشافات العلمية الباهرة والإنجازات التقنية والصناعية الهائلة، فتكشف عن أسرار الخلق الدقيقة وتحتل الطاقة النارية مكانتها القوية سواء في العلوم الفيزيائية والكيميائية والبيولوجية والتطبيقية .

ويرفع العلم الستار عن طبقة جديدة من الإعجاز القرآني مصدقة لما فيه وداعية إليه .

إلا أن تقدم العلوم الطبيعية في جو الحضارة العلمانية التي فصلت بين علوم الدين وعلوم الدنيا أدى إلى أنواع من التصادم العقائدي بين الاكتشافات العلمية والمعتقدات التقليدية [٢]، وفي رأينا أن ذلك التصادم لم يحدث بين الحقيقة العلمية الثابتة وحقيقة الآية القرآنية، بل العكس أصوب لأن الاكتشافات

(١) القانون في الطب لابن سينا جـ ١ ص ٢٢٩ .

(٢) تلك العلمانية التي يتحدث عنها الباحث، ذات جذور تاريخية، فهي صدى لما كان من صراع بين الكنيسة والسلطة في أوروبا والغرب وتلك ثقافتهم، بخلاف منهج ديننا الإسلامي فإنه دين العلم .

العلمية تؤيد الآية القرآنية وتعطيها بعداً أعمق ومدلولاً أوسع، إنما التصادم يقع بين نوعيات أو مستويات متفاوتة من المعرفة التي هي في حق الإنسان قابلة للتطور والخطأ .

بينما تبقى حجة الآية الاستدلالية والوعظية تطرق أذهان البشر على مر العصور فلا يزالون يجدون في آيات النار وأسرار نشأتها وحكمة تسخيرها دليلاً ساطعاً على وجود خالقها، ولايزال البحث العلمي يراود أسرار الكائنات في النفس الإنسانية وفي آفاق الكون

﴿ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ (فصلت : ٥٣)

﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ (آل عمران : ٧)

الإعجاز القرآني في ترابط الآيات

ويتجلى في الترابط الدقيق بين ظاهرة النار وبقية الظواهر الطبيعية من ناحية، ومن ناحية أخرى بين آية النار ومختلف الآيات الكونية الأخرى في القرآن الكريم، وكل ذلك يشهد على دقة الخلق وتناسقه ووحدانية الله تعالى وصدق القرآن الكريم .

إن النار آية من الآيات المتجلية في الآفاق، ولا تنفصل عن نظام العالم، ولا تخرج عن حكمة وجوده وغاية تسخيره للإنسان كما يشير إليه قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ (لقمان : ٢٠)

ويظهر ذلك الترابط في العلاقة الحياتية بين الطاقة الشمسية ومظاهر الحياة في الأرض كما نمثله في الشكل (٣)

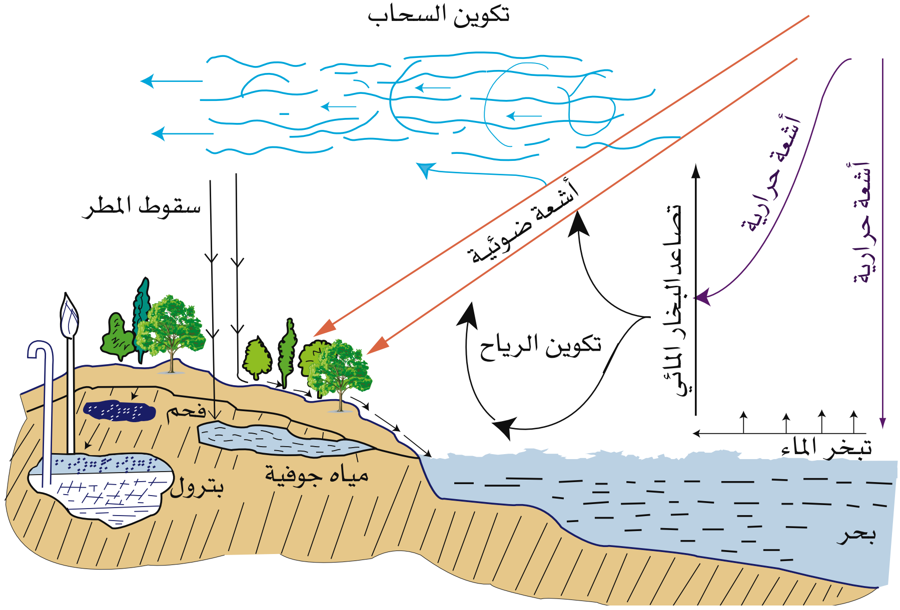

(شكل ٣) العلاقة الحياتية بين الطاقة الشمسية ومظاهر الحياة في الأرض

خلاصة هذا الترابط هو أن الشمس تبعث أشعتها الحرارية والضوئية على سطح البحر وعلى المساحات الأرضية فتثير بسخونتها تبخر الماء وصعوده إلى الأجواء الباردة حيث يتكاثف البخار المائي في السحاب وتتكون منه الأمطار، بينما تثير تلك التيارات الحرارية تحركات هوائية تنتج عنها الرياح التي تسوق السحب إلى داخل البراري والأقطار، وأما أشعة الشمس الضوئية فإنها تنفذ إلى خلايا النباتات المختلفة، وتمدها بالطاقة التي تكوّن بها المادة العضوية، ومن تلك المادة تتغذى الحيوانات والإنسان، بينما تتراكم فضلاتها، وتتحلل جزئياً، وتتكون منها أنواع المحروقات .

هذا الترابط البديع والتنسيق الحكيم بين الطاقات الكونية والحياة الأرضية ليس من شأنه أن يكون نتيجة الصدفة العمياء بل يشهد على حكمة الخالق

﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ (الأعلى : ٢ ، ٣)

ونفس الترابط البديع تعبر عنه الآيات القرآنية كما نجده في قوله تعالى :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ

الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة : ١٦٤)

هذه الآية الجامعة ترجع بنا إلى التحليل السابق، وتعبر عن تناسق الطاقات الكونية وتسخيرها للحياة في الأرض، وتسخير الكل للإنسان المستخلف في الأرض، ذلك ما أردنا أن نبينه في الشكل (٤) .

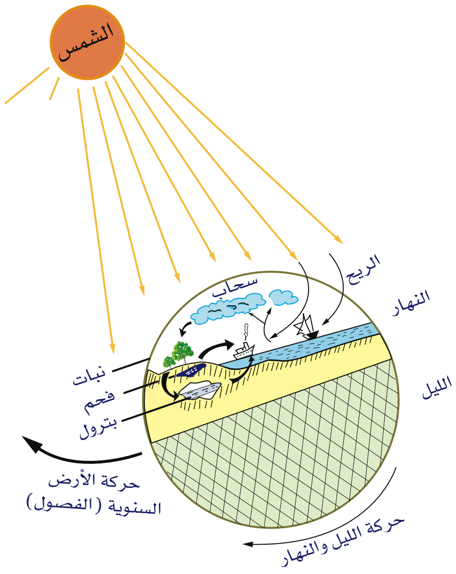

(شكل ٤) تناسق الطاقات الكونية وتسخيرها للإنسان

فالرسم السابق يوضح ماتكنه الآية الكريمة من إعجاز علمي في دور الطاقة النارية المنبعثة من الشمس، ونشرحها كما يلي :

أ- خلق السموات والأرض :

الشمس نجم من بين النجوم الوهاجة التي تسبح في السماء ولا تحصى عدداً، وإنما سخرها الله خاصة للحياة في الأرض، وخلق الأرض على بعد منها محدد ومقدر، بحيث إن الأرض تلتقط من حرارة الشمس كمية موزونة من الأشعة الضوئية والحرارية بقدر ماتحتاجه الحياة لنشأتها ونموها وانتشارها .

ب- اختلاف الليل والنهار :

وهو حركة الأرض حول محورها التي بفضلها تتوزع الطاقة الشمسية على جميع أنحاء الأرض المعمورة بالتداول، بينما تستغل فترة الليل لنشاطها أو للسكونات الاستكمالية سواءً على مستوى النبات أو على مستوى الإنسان والحيوان .

ج - الفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس :

منها القلاعية التي تسير بدفع الريح الذي تثيره حرارة الشمس، ومنها المحركة بأنواع الوقود المشحونة بالطاقة النارية المحولة .

ونفس الحكم يجري على أنواع المراكب البرية والجوية وعلى الآلات المصنوعة التي تتحرك بطاقة المحروقات ومشتقاتها .

د- نزول الماء من السماء :

يحدث من خلال الدورة المائية التي تثيرها الطاقة الشمسية بتسخين مياه البحر وتبخيرها، وتصعيدها في الجو، وتكثيفها في السحاب، وإنزالها على الأرض .

هـ- يحيي الأرض بعد موتها :

كما يلتقي الماء بعناصر الأرض والهواء والطاقة الشمسية، وتؤلف بينهم القدرة الخلاقة، كما رأينا ذلك في ظاهرة التمثيل الضوئي، وكما تشير إليه آيات قرآنية كثيرة منها قوله تعالى :

﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ (الحج : ٥)

و- الحياة النباتية والمياه الجارية :

ومن الحياة النباتية والمياه الجارية تتغذى الدواب وتتكاثر الأنعام وتتوالد الحيوانات ويسخرها الله للإنسان كما سخر له ما في الأرض جميعاً قال تعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ * وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ (يس : ٧١-٧٣)

ز- تصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض :

لقد رأينا كيف ينتج ذلك عن التفاعلات والحركات التي تثيرها الطاقات الشمسية على سطح الماء وفي الهواء قال تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَى أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴾

(النور : ٤٣)

الإعجاز العلمي في حكمة الاستدلال بظاهرة النار

رأينا في النوع الثاني من الإعجاز العلمي أن القرآن الكريم يستشهد بظاهرة النار لإثبات حقيقة البعث، وفي التعرض الأخير لوجود الإعجاز حاولنا أن نستكشف سر الاستدلال بظاهرة النار خاصة .

النتائج التي توصلنا إليها نعرضها كما يلي :

إن الماديين يعتمدون في إنكارهم لحقيقة البعث على المشاهدة للظاهرات الطبيعية، ويستدلون بقوانين المادة وطبائعها للحكم على ظاهرة الحياة نفسها بأنها ظاهرة عفوية أو حتمية لا تخضع لإرادة أو قدرة خارجة عنها، وبأن مآلها الحتمي هو الفناء والرجوع إلى طبائع وعناصر المادة الأولى .

ويرد عليهم القرآن الكريم بظاهرة الحياة نفسها بقوله تعالى :

﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ (يس : ٧٩)

ثم يتعدى القرآن الكريم إلى ظاهرة النار ليدعم بها معجزة الحياة فيقول سبحانه :

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ (يس : ٨٠)

ويقول : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ۞ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴾ (الواقعة : ٧١ ، ٧٢)

إن المقارنة بين نشأة الإنسان الذي نفخ اللّه فيه الروح، ونشأة الشجر الأخضر الذي شحن فيه طاقة النار تبين لنا حكمة بديعة في الاستدلال بها، وذلك ما نلحظه في :

التشابه الخَلقي .. والتكامل الحياتي .. والتناسب الاستدلالي .

١ - التشـابـه الخلقي

ويظهر في الطبائع التالية :

أ - تتركب المادة العضوية في النبات والحيوان والإنسان من نفس العناصر الأرضية، وهي المعادن والماء والهواء وتضاف إليها الطاقة الحرارية .

أهم تلك العناصر الأرضية : كربون C، فسفور P، مغنيزيوم Mg، هيدروجين H، كبريت S، صوديوم Na، أكسجين O، كالسيوم Ca، حديد Fe، أزوت N، بوتاسيوم K، منغانيز Mn، كوبالت Co، نحاس Cu، زنك Zn .

كل هذه العناصر توجد في المواد العضوية بكميات مختلفة، وتكسب أدواراً خاصة في التراكيب والتفاعلات الحياتية .

ب - النبات والحيوان والإنسان يشتركون في الطبائع والوظائف الحياتية مثل التنفس والتغذية والتناسل والنمو والموت ونظام الخلايا والبروتينات النووية .

ج - ظاهرات النشوء والنمو والموت تتشابه في النبات وفي الإنسان، فبينما الحياة تبدو كتجمع تركيبي وظيفي للعناصر الأرضية والنارية، يظهر الموت كتحلل بطيء أو سريع للمادة العضوية وعودة إلى الأصول الأرضية، كما يتبين ذلك في (شكل رقم ٥ ، ٦) .

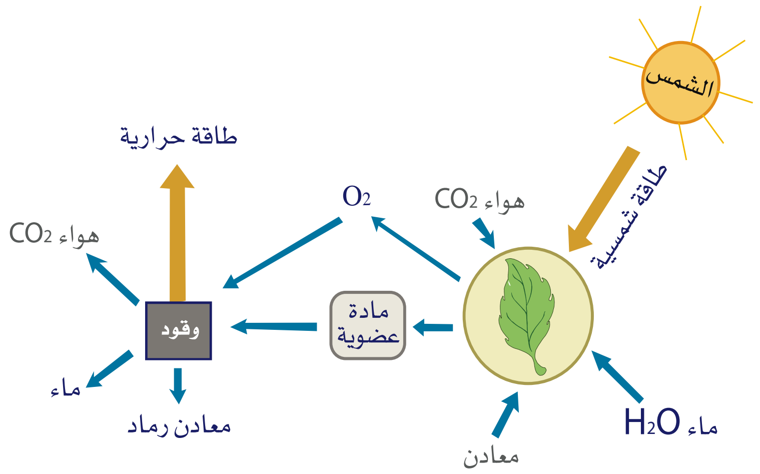

(شكل ٥) التركيب والإنحلال في النبات

د ـ القدرة الحياتية التي تؤلف بين العناصر المكونة للكائن الحي وتدبر نشأته وتطوره وتناسله بدءاً من النشأة الأولى وتواصلاً من الحب والنوى والنطف الحيوانية، قدرة خفية لا تشاهد ولا توزن بالمعايير الموضوعية، وإنما تتجلى للعقل واجبة الوجود سواء اعتبرنا في الشجرة الخضراء المشحونة بالطاقة الحرارية أو في الجسم الإنساني الذي نفخ الله فيه الروح وأحياه .

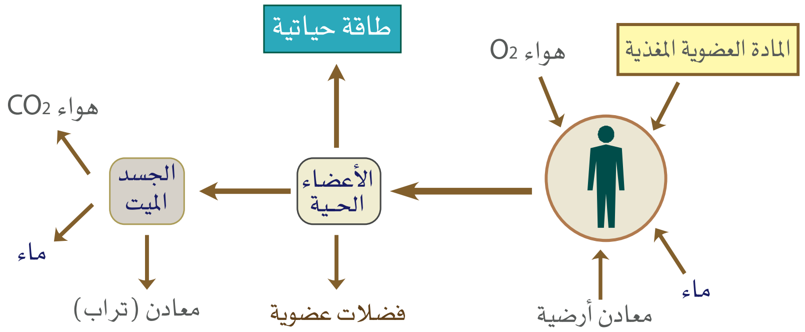

(شكل ٦) التركيب والإنحلال في الإنسان

٢ ـ التكامل الحياتي بين النبات والإنسان

ونجده في نوعين من العلاقات :

الأولى : علاقة تبادلية بين النبات والحيوان عامة كما نبينها في (شكل ٧)

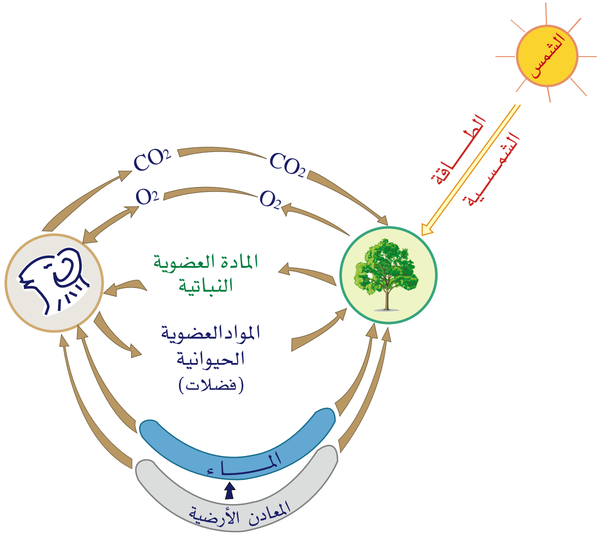

(شكل ٧) التبادل الحياتي بين النبات والحيوان

والثانية : علاقة تسخيرية وهي أن الطاقات الطبيعية والنباتية والحيوانية مسخرة للإنسان سواء في حاجاته المعاشية أو مستلزماته الحضارية كما في (الشكل ٨)

وهذا التسخير قد يكون فطرياً كما هو الحال بالنسبة مثلاً للطاقة النارية المشحونة في الوقود، وبالنسبة للمراعي والأشجار والأنعام، وقد يكون إرادياً بقدر الملكة العرفانية والإبداعية التي جعلها الله في عقل الإنسان ليسود بها على الكائنات الأخرى المسخرة في الأرض .

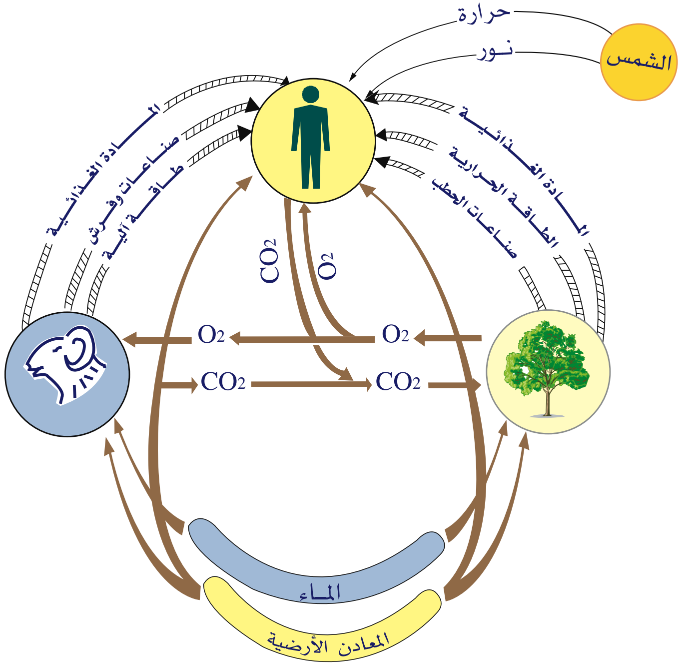

(شكل ٨) التبادل الحياتي بين النبات والحيوان والإنسان

٣- التناسب الاستدلالي

يستدل القرآن الكريم على حقيقة البعث بظاهرتين متماثلتين ظاهرة النار المخزونة في النبات، وظاهرة الروح المودعة في جسم الإنسان، ذلك التناسب بين الظاهرتين نوضحه في الرسمين (شكل ٩، و شكل١٠)

وفي التعقيبات التالية :

تعلمنا علوم الطبيعة بأن العناصر التي يتركب منها الكائن الحي لا تتغير في طبائعها الأساسية ولا في كمياتها، وإنما تتحول في كيفياتها ونسبها .

ولكن الكائن الحي لا ينشأ بمجرد التقاء تلك العناصر، وإنما بتدخل عامل غيبي مهيمن عليها، بقدرة الخالق الذي يخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي .

أما في حق النبات فإن قدرة الخالق تؤلف بين العناصر الأرضية والطاقة الشمسية لتخرج منها ﴿ حَبّاً وَنَبَاتاً * وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً ﴾ (النبأ: ١٥، ١٦)

بعد ما كانت ميتة وجفافاً ﴿ وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ

اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ (الحج: ٥)

وكذلك في حق الإنسان، فإن قدرة الخالق هي التي أنبتته من الأرض نباتاً، وأنشأته من الماء والحمأ المسنون، ونفخت فيه الروح وأمدته بالعقل، وعلمته مالم يعلم لقادرة على أن تبعث فيه الروح مرة أخرى بعد رجوعه إلى عناصر الأرض .

قال تعالى :

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾ (الحج: ٦، ٧)

أنظر (شكل ٩، ١٠) .

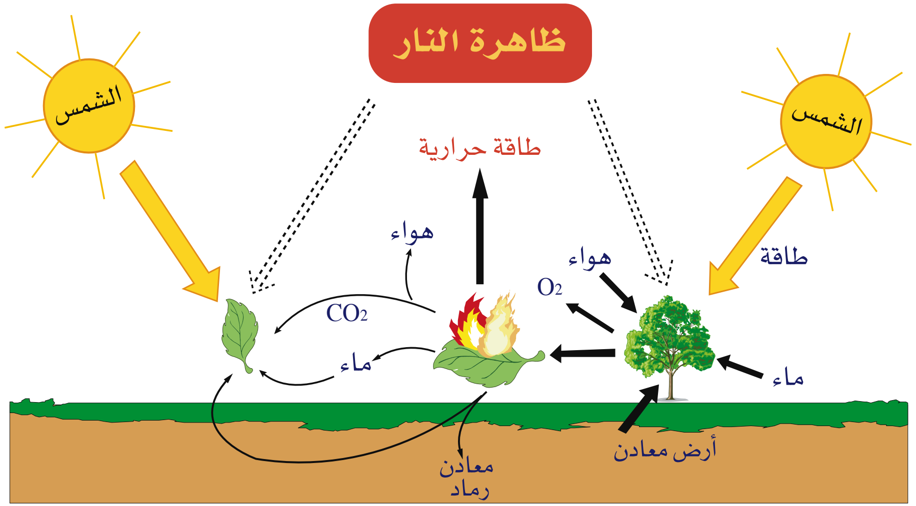

(شكل ٩) ظاهرة النار المخزونة في النبات

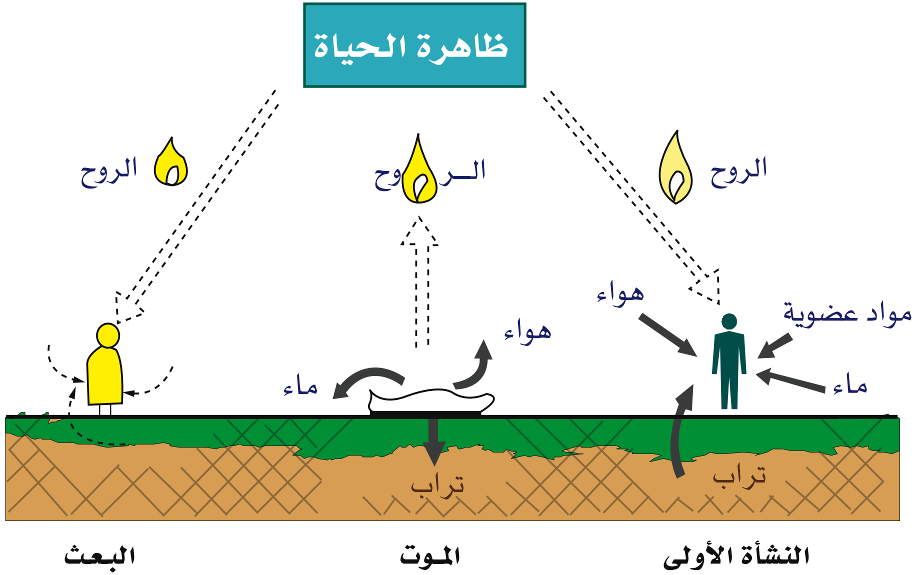

﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ (طه: ٥٥)

(شكل ١٠) ظاهرة الروح المودعة في جسم الإنسان

الإعجاز العلمي في تحدي القرآن للإنسان

ويختلف هذا النوع عن الأنواع الأخرى من الإعجاز الاستدلالي الذي عرضنا منه بعض النماذج، ويتمثل في تحدي القرآن الكريم للإنسان من حيث قدرته على الخلق أو التحكم في مجرى قوانين الكون .

وكما أن التحدي الاستدلالي يدحض جدلية المنطق الإلحادي بفضح تناقضه ونقائصه فإن التحدي الإعجازي يهدف إلى إبطال الجدل الإلحادي الذي يحاول استصغار القدرة الإلهية أو إنكارها .

نجد هذا النوع من التحدي القرآني في أوضح تعابيره في محاجة إبراهيم عليه السلام لصاحب الملك في عهده حين قال : ﴿ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾ (البقرة : ٢٥٨)

وما كان ذلك الزعم عند الطاغية إلا تلاعباً بالألفاظ، وتلبيساً للمعاني لأن قدرة الإحياء والإماتة التي كان ينسبها لنفسه ليس لها البعد المطلق الذي تحمله في حق الله جل وعلا ، وكان التحدي حاسماً على لسان إبراهيم عليه السلام حين قال :

﴿ إِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾ (البقرة : ٢٥٨)

والتحدي هنا يُظهر عجز الإنسان عن المساس بسنّة الله في الكون أو عن مضاهاة القدرة الإلهية . نفس التحدي نستنبطه من مضمون الآية الكريمة ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * أَأَنْتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴾ (الواقعة : ٧١، ٧٢)

ويشمل هذا التحدي بُعدين متكاملين يدعم أحدهما الآخر :

بُعدٌ يُظهر قدرة الله وواسع علمه، وبُعدٌ يُظهر عجز الإنسان وقصور علمه .

فأما البعد الذي يعظم القدرة الإلهية، فقد شرحنا بعض الأوجه منه في الفصول السابقة التي تشرح ظاهرة التسخير للطاقة الحرارية . وأما البعد الذي يكشف عجز الإنسان وسخافة الاستكبار الإلحادي فإنه يتمثل في مطالبة الإنسان بتقديم برهانه

على ما يدعيه من القدرة ومن الاستغناء عن الخالق لأنه ليس في متناوله أن ينشىء ذلك الشجر الذي اختزن الله فيه طاقة النار .

وإذا كان التحدي في عصور الجاهلية الأولى يتوجه إلى قوم لا يملكون من المعرفة والمقدرة إلا القسط الضئيل فإنه في عصر الاكتشافات الباهرة والإنجازات التكنولوجية الهائلة يكتسي خطورة تكبر بقدر الاستكبار الإلحادي الذي يعتمد عليها .

لقد كان الإلحاد البدائي يجادل في البديهيات عن طريق الجدل البسيط كما حكى القرآن الكريم موقف الملحد في قوله تعالى :

﴿ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ (يس : ٧٨)

أما في العصر الحديث فإن الإلحاد يمتطي منهج الجدلية المادية التي لا تكتفي بإنكار وجود الخالق اعتماداً على ظاهر الأشياء، وإنما تحاول أن تقيم البرهان العلمي على ما تدعيه، وفي ذلك الغرض تسلك المادية الجدلية الجديدة طريقتين مترادفتين :

أ- طريقة التحليل العقلي .

ب- طريقة التخليق الاصطناعي .

أ- طريقة التحليل العقلي

تعتمد هذه الطريقة على التفسير الموضوعي لظواهر الحياة، وتحاول أن تبين أن الحياة بما تشمله من كائنات دقيقة ونباتات وحيوانات وإنسان عاقل ليست نتيجة لإرادة إلهية مقدّرة ومدبِّرة، وإنما هي نتيجة لتطورات متتالية تخضع لعاملين طبيعيين هما :

١- عامل الصدفة التي تجمع بين العناصر الطبيعية .

٢- عامل الحتمية التي تجمع بين القوى الكامنة في تلك العناصر فتنشأ عنها مركبات كيميائية تتزايد في التكاثف والتعقد حتى تظهر فيها طبائع وكيفيات تقفز بها إلى مستوى أعلى من الوجود، وهو مستوى الحياة .

تشمل هذه النظرية كل ظواهر الحياة، وهي النمو والتوالد وتخزين الطاقة وتحويلها إلى نشاط وظيفي .

ولعل ظاهرة التمثيل اليخضوري التي يتميز بها النبات، هي من الميادين العلمية والاختبارية التي توصل فيها العلم إلى أبعد مدى من التحليل والتدقيق رغم أن ذلك العلم مع إمكانياته ووسائله الهائلة لم ينفُذ ولا يمكن له أن ينفُذ إلى الأسرار النهائية،

وهي أسرار تسخير الطاقة لوظيفة الحياة .

ومهما بلغت مزاعم العلماء الماديين فإنهم لا يخرجون من ملاحظة الأشياء واستكشاف الكيفيات، وكلما حاولوا إدراك الأسباب والغايات وقعوا في متاهات الظن والتخمين، وكان ذلك حظ كل الفلاسفة الماديين سواء كانوا ماركسيين مثل « ماركس » نفسه « وانجلس » لا سيما في كتابه « جدلية الطبيعة » أو مثل من تأثروا من بعدهم بالفكر المادي ولو لم ينتسبوا مذهبياً إلى الأصول الماركسية، ومنهم « جاك منود » في كتابه « الصدفة والحتمية » أو « ألان جاكوب » في كتابه « منطقية الكائن الحي » .

ومن الغريب أن أولئك الجدليين يعتمدون على إتقان المصنوع لإنكار الصانع، وعلى إثبات الغاية الحياتية لتكذيب الغاية الوجودية فيقعون بذلك في تناقض جدلي فظيع كما نجده في قول ألان جاكوب : " إن الكائن الحي يمثل حقاً تنفيذَ تصميم، ولكن ليس هناك عقل يدبره . إنه يسعى لتحقيق هدف، ولكن ذلك الهدف ليس نتيجة لإرادة مخيرة " (منطقية الكائن الحي) !! .

يدعي هذا المنهج الجدلي الواثق بغوايته – وبغض النظر عن دقة الظاهرة وكمال نظامها وعجيب تناسقها – أن عملية تخزين الطاقة الحرارية في أجهزة الخلايا

النباتية ليست سوى استراتيجية ذاتية خاضعة لقانون الحياة تستقطب الطاقة وتروضها لتحقيق أهداف الحياة .

الماديون يصلون إلى أبواب الحق ثم يبتعدون عنه خائفين منه ورافضين له .

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ ﴾ (البقرة : ١٧)

ب- طريقة التخليق الاصطناعي

أما هذه الطريقة فهي ملازمة لمنهجية العناد الإلحادي، وتتمثل في محاولة إثبات نظرية التخلق الذاتي بتدخل الإنسان في عمليات التفاعل الطبيعية حتى يستخرج منها المادة الحية، وفي رأيهم أنه إذا ثبت أن الإنسان قد استطاع أن يصنع المادة الحية، أو كائناً يملك صفات الحياة، فإن ذلك قد يبرهن على أن ظاهرة الحياة قد تستغني عن تدخل قدرة خارجة عن الطبيعة .

وانطلق المعاجزون يحاولون خلق الظروف المناخية التي يظنون أنها كانت تسود في

الأرض عند بروز الحياة فيها فصنعوا أوعية مشحونة بالغازات والأبخرة، وأثاروا فيها زوابع مهيجة للمركبات الكيميائية، وقذفوا فيها صواعق الكهرباء والأشعة فوق البنفسجية . ولم تتمخض هذه العملية ولا غيرها من الاختبارات المماثلة إلا على مركبات كيميائية عادية لا تكسب من طبائع الحياة شيئاً .

لم يستطع ولن يستطيع الإنسان في تجاربه واختباراته وإنجازاته التكنولوجية الهائلة أن يغير سنّة الله في المخلوقات، ولا أن يصنع مادة نباتية ولا حيوانية تملك صفات الحياة، ذلك لأنه لا يكسب من العلم إلا ماعلَّمه الله، ولا يكسب من القدرة إلا التي سخرها له بمنحه العقل المبدع وبتذليل الطاقات والكائنات له .

بتلك القدرة المودعة فيه، وبتلك الطاقات المسخرة له يمكن للإنسان أن يستخدم الطاقة الشمسية وغيرها من الطاقات الكامنة في البر والبحر وفي الشجر وفي الحيوان، وحتى في الكائنات الدقيقة التي لا تحصى كماً ولا نوعاً، والتي أودع الله فيها قدرة التزود بالطاقة الشمسية واستخدامها لتأدية وظائفها الحياتية .

ومن طبائع الحياة أنها تستخدم قوانين الطبيعة لتحقيق أهدافها الوظيفية وغايتها الوجودية فتأخذ من الماء ومن معادن الأرض ومن غازات الهواء، ومن طاقة الشمس

الحرارية والضوئية فتبني بها المادة العضوية والجسم الحي الذي ينمو ويتوالد ويتغذى، ولا يمكن أن يكون ذلك التركيب الحياتي عفوياً ولا حتمياً لما فيه من دقة خلقية وتناسق وظيفي وتوجيه غائي لا يحصل ولا يكمل إلا بتدبير عليم حكيم .

ويستمر العناد الإلحادي والعلماني مصراً في استكباره وإنكاره للحق، ولكنه بقدر ما يتصاعد ذلك التحدي يكبر التحدي القرآني، وكمثل حية موسى يطغى على المعاندين ليلتقم ماخلقوا وما خرقوا فترجع البراهين إلى نحور المكذبين .

وإذا بالاكتشافات العلمية سواء في الكون الكبير أو في الجزئيات الصغيرة، وسواء في مركبات المُتُكُونْدرِيَّة التي تستهلك الطاقة داخل الخلايا البدنية أو مركبات اليخضور التي تخزن تلك الطاقة في خلايا الشجر الأخضر تؤيد الحق وتدعو إلى الله .

ويَثْبُتُ بالعلم إعجاز الآية الكريمة : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * أَأَنْتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴾ (الواقعة : ٧١، ٧٢)

في الواجهتين :

١- واجهة الاستدلال بعظمة الخلق التي تُعجِزُ علم العلماء .

٢- واجهة التحدي الذي يظهر سخافة المستكبرين الملحدين بعجزهم عن إنشاء الشجرة التي يستخرجون منها نورهم ونارهم قال تعالى :

﴿ هَذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ ﴾ (لقمان : ١١)

الخلاصة

إن التدبر في الآيات القرآنية التي تستدل بظاهرة النار على حقيقة البعث أدت بنا إلى مجالات علمية وفكرية تكاد تصلنا بكل ما في الآفاق والأنفس من آيات خلقية تشهد على أن الله حق، وأن القرآن الكريم صدق، وأن البعث لا ريب فيه .

ولقد أحجمنا عن التجول في المسالك التي تراءت لنا في كل حلقة من هذا البحث عجزاً عن استقصائها وبغية للتبسيط والاختصار .

ولعل القليل الذي أوردناه في إعجاز القرآن الكريم الذي يتجلى من خلال آيات النار - نصاً وظاهرة - يوحي بكثير مما أغفلناه أو جهلناه .

لقد آنسنا في آيات النار نوراً فالتمسناه، وإذا به يشع بالحق الساطع والإعجاز القاهر مما تعجز عن إدراكه العقول، قال سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (لقمان : ٢٧)

المراجع العربية

١- القرآن الكريم .

٢- ترجمة معاني القرآن الكريم، عبدالله يوسف علي .

٣- التفسير الكبير، الفخر الرازي . ط٣ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت .

٤- ميزان العمل، أبو حامد الغزالي .

٥- القانون في الطب، ابن سينا . دار الفكر ـ تصوير عن طبعة بولاق ـ بيروت .

٦- تحديات علمية وآفاق اجتماعية، أحمد عروة، تحت الطبع، دار الشروق .

٧- من أين وإلى أين، قصة الإنسان في القرآن، أحمد عروة، الندوة الخامسة للسمات الإنسانية للعلم والعمل في بلاد الشام، دمشق ١٩٨٦.

٨- تأملات حول العلم والدين، أحمد عروة، معد للطبع .

٩- كتاب التوحيد، عبد المجيد بن عزيز الزنداني .

١٠- معجزة القرآن، نعمت صدقي، تونس .

١١- الطبيعة في القرآن، قاصد ياسر الفريدي، وزارة الثقافة والإعلام، العراق .

المراجـع الفرنسية

1- La Biplogie . Article"Cellule" . chapitre "photosynthese".
Les Idees, Les Oeuvres, Ies Hommes.

2- Les source d'energie. Albrert Hinklebein
Flammarion International Library.

3- Pour La Science . No Nov.1993 L'atmosphere,
La Plantes.

4- La Photosynthese, des Plantes.
La Recherche No 154 Avril 1984.

5- In Encyclopedie Alpha, Articles:
Photosynthese, Charbon, Houille, Petrole, Gas…..

6- La Photosynthese
Encyclopedie des Sciences. Biologie. Vol. II.

7- La vie des Plantes
Encyciopedie Bordas. No 10.

8- L' homme Reinvente La photosynthese
Fabien Guhier .
Sciences et Avenir No 353. 1975.

9- Les huiles Vegetaies, un carburant d'avenir
Robert Stern. La Recherche. No 152. fev. 1984.

10- L' ideologie sovietique contemporaine
Gustave A. Weltar Payot.

11- Les Lois de La nature. Encyclopedie Bordas.

المحتويات

تقديم	٥
تمهيد	٨
الإعجاز الجدلي	١٢
الإعجاز العلمي في التكامل الاستدلالي	١٦
الإعجاز العلمي في الظاهرة الخلقية	٢٠
الإعجاز العلمي في شمولية المعنى	٢٦
الإعجاز التبليغي	٢٨
الإعجاز القرآني في ترابط الآيات	٣٤
الإعجاز العلمي في حكمة الاستدلال بظاهرة النار	٤٢
الإعجاز العلمي في تحدي القرآن للإنسان	٥٤
الخلاصة	٦٣
المراجع	٦٤